

دور السلجوقيين

من سنة ٤٦٣ - ٤٩٠

أصل السلجوقيين والتركان والفتح السلجوقي

كانت الشام في معظم دور الفاطميين ككرة الصوالة تتقاذفها القوات المختلفة. وقد قام الفاطميون بعقب انقراض الدولة الإخشيدية في مصر، وورثوا تراثهم في قسم من هذه الديار، ثم انقضت دولة الحمدانيين في الشمال، وكانت في آخر أمرها تفرع إلى دولة الروم البيزنطية لتحميها بأس خلفاء المصريين من بني عبيد. وقامت دولة بني مرداس ودولة بني الجراح ودولة بني سنان أي دول بني كلاب والطائيين وبني كلب إلى غيرهم من الدول الجديرات بأن يطلق على القائمين بها خوارج على الفاطميين، وكلهم أمراء عرب البادية أخضعوا المدن لسלטانهم مدة، وكان قيامهم دليلاً على ضعف الدولة وسوء سياسة عمالها.

انقضى عهد الفاطميين أو كاد وكانت معظم أيامهم فتوحاً وفتوقاً، ولم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة، بل كان إذا خضع الساحل خاصم الداخل، وإذا أطاع الجنوب نشز الشمال. وهكذا كان الشقاء في أيامهم أكثر من السعادة، والأهواء مشتتة، والآراء ممزقة، ولئن كان أول خلفائهم ممن ملك الشام المعز ثم العزيز يحبان العدل والإنصاف، ولهما من الحزم قسط وافر، إلا أن الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما أيضاً كانوا في الأكثر ظلمة يسفكون الدماء ويستحلون أموال الرعية. فخرّب القطر في أيامهما وضعف أهله وغلت الأسعار ولا سيما على عهد العزيز،

وكانا يبادران حالا إلى إبدال العمال مخافة أن ينزعوا إلى العصيان. أما عهد الحاكم فكان الخلل المطلق، لخلل في عقله وخرق في سياسته، وكانت الشام بعده تختلف باختلاف العامل الذي ترسله مصر.

وبينا القطر متقلقل في سياسته أقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها. قوة

الدولة السلجوقية التركمانية الجديدة جاءت لتقضي على الدولة الفاطمية العربية التي نزل بها الهرم أو كاد. والسلجوقيون نسبة لسلجوق من صغار أمراء الترك في أرجاء بخارى، يقسمون إلى ثلاثة فروع: فرع العجم وهذا الذي استولى على العراق والجزيرة، ثم على الشام والحجاز واليمن، وفرع الروم أي آسيا الصغرى، وفرع كرمان. والتركمان قبائل كانت لأول أمرها تنزل بين بحيرة آرال وبحر الخزر، وهم من أول الأتراك الذين دانوا بالإسلام وخدموا بني العباس، هاجروا إلى فارس والعراق وآسيا الصغرى. وهم أصل الترك العثمانيين سكان الأناضول، وأعظم الشعوب التركية. والفرق طفيف بين لسانهم ولسان اويغور أي الجغتاي. وتنقسم الألسنة التركية إلى خمسة أقسام وهي الجغتاي أو اويغور والنوغاي أي التتري والقرغيز والياقوت واللسان العثماني. فإذا أطلق اسم الترك فالمقصود منه الجنس الجامع لهذه الشعوب الخمسة، وإذا قيل التركمان أريد به أعظم شعب في الترك، وكلا الإطالقين جائز. والتركمان على جانب عظيم من الشجاعة والفروسية، أظهروا من الجلادة منذ وطئوا هذا القطر ما خلدوا به أعظم المفآخر، وأسسوا في الشام حكومات منها المحمود، ومنها دون ذلك.

لما سار السلطان آلب أرسلان ثاني ملوك السلجوقيين بجيوشه إلى الشام، كانت مملكته تمتد إلى الصين شرقا، ومن أقصى ديار الإسلام

شمالاً، إلى أقصى اليمن جنوباً، وجاء إلى حلب وأقام الحصار عليها وعظم القتال بين عساكره وحامية حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ثم استسلم هذا وخلع عليه السلطان آلب أرسلان، وأعادته إلى بلده فبعث إليه مالا جزيلاً. وفي تلك السنة ٤٦٣ قطع خطبة المستنصر العلوي وخطب للقائم العباسي، وبدأ ظل الدولة الفاطمية يتقلص، وكان الحامل لآلب أرسلان على فتح الشام أن ناصر الدولة بن حمدان الحاكم المتحكم في الدولة المصرية أرسل يسأله أن يسير له عسكرياً من قبله ليقوم بالدعوة العباسية وتكون مصر له، فتجهز آلب أرسلان من خراسان في عساكر جمعة، وكان جيشه فيما قيل لا يقل عن أربعمئة ألف.

وخلف آلب أرسلان في الشام طائفة من عسكريه فجمع أئمة بن اوق من أمراء السلجوقيين الأتراك الغز، وسار إلى فلسطين ففتح الرملة، وسار منها إلى بيت المقدس وحصره، وفيه عسكري المصريين ففتحته، وملك ما يجاوره ما عدا عسقلان، وقصد دمشق فحصرها وتابع نهب أعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها، فضاق الأمر بسكانها فصبروا ولم يمكنوه من ملك البلد فعاد عنه، وأدام قصد أعماله وتخريبها كل سنة حتى قلت الأوقات عندهم، فكان يأخذ الغلات عند إدراكها فيقوى بها هو وعسكريه ويضعف أهل دمشق وجندها.

ولما ملك السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان ٤٦٥ سير أخاه تاج الدولة تتش إلى الشام، وقرر معه فتح ديار مصر والمغرب واستخلاصهما من العلويين، وأمر مملوكيه بزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض. وكان ملكشاه الملقب بالسلطان العادل وأبوه آلب أرسلان من قبل المثل السائر في آل سلجوق بعدلهم، ولم يكن للخليفة العباسي معهما سلطان في الحقيقة، على نحو ما كان العباسيون

في الدهر السالف مع سلاطين بني بويه الأعاجم. عرفت الشام ذلك وكان مما يفتح القلوب لحكم السلجوقيين أنهم من أهل السنة يخطبون باسم بني العباس. وجميع هذه المزايا كانت مفقودة في الدولة العلوية المصرية.

فتح دمشق

وفي سنة ٤٦٧ حاصر السلاجقة ثغر عكا وقتلوا واليها وساروا عنها إلى طبرية، وسار أتسز إلى دمشق فحصرها وأميرها المعلى بن حيدرة من قبل الخليفة المستنصر ولم يقدر عليها فانصرف عنها، وكان المعلى أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم، فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر، وأعانهم العامة فهرب منها، فخرجت دمشق وأعمالها وجلا عنها أهلها، وهان عليهم مفارقة أملاكهم وسلوهم عن أوطانهم، بما عانوه من ظلمه، وخلت الأماكن من قاطنيها، والغوطة من فلاحيها. ولما رحل المعلى عن دمشق اجتمعت المصامدة الفاطميون وولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودي وغلت بها الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضا، ووقع الخلاف بين المصامدة وأحداث البلد، وعرف أتسز ذلك فعاد إلى دمشق فحصرها، فعدمت الأقوات وبيعت غرارة القمح إذا وجدت بأكثر من عشرين ديناراً، فسلموها إليه بالأمان وخطب بها للخليفة العباسي، وكان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين. وتغلب على أكثر الشام ومنع الأذان بحي على خير العمل، ففرح أهلها فرحاً عظيماً، وظلم أهلها وأساء السيرة فيهم.

قال ابن عساكر: إن أتسز التركماني لما دخل دمشق وكان حاصرها دفعات، أنزل جنوده دور الدمشقيين، واعتقل من وجوههم جماعة، وشمسهم بمرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له، ورحل جماعة منهم عن البلد إلى طرابلس إلى أن أريحوا منه بعد. وقال ابن الأكفاني:

نزل أئتسز محاصرا لدمشق ثم انصرف عنها، ثم عاد إلى منازلها، ثم رحل عنها، ثم رجع إليها فحاصرها، ثم إنه فتح البلد صلحا، ودخلها هو وعسكره سنة ٤٦٨ وسكن دار الإمارة وخطب بها للمقتدي العباسي، وكتب إليه يذكر له تسليمها إليه، وغلو الأسعار بها، وموت أهلها، وأن غرارة القمح بيعت بمائتي دينار مما لم يعهد مثله. وأن أئتسز نظر في أمور دمشق بما يعود بصلاح أعمالها، وأطلق لفلاحي المريج والغوطة الغلات للزراعات فصلحت الأحوال ورخصت الأسعار.

ولما فتح أئتسز دمشق وأقام الخطبة العباسية طمعت نفسه في ملك مصر، فسار ٤٦٩ من دمشق فيمن استطاع من الأحداث والجند ورجع خائبا بعد أن قتل من

جنده جملة كثيرة جدا، ثم أقام بدمشق وجاءه التركمان من الروم ولم يستخدم غيرهم، وعصى عليه الشام وأعيدت خطبة صاحب مصر في جميع الشام، قام بذلك المصامدة والسودان. وكان أئتسز وأصحابه تركوا أموالهم بالقدس، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم ونسائهم فنهبوا واستعبدوا الأحرار، فخرج من دمشق فيمن انضوى إليه، ودخل القدس فقتل ثلاثة آلاف إنسان، واحتفى قوم بالصخرة والجامع فقرر عليهم الأموال لأنه لم يقتلهم وأخذ مالا كثيرا، وسار إلى الرملة فلم ير فيها من أهلها أحدا، فجاء إلى غزة وقتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف، وجاء إلى العريش فأقام فيه وبعث سرية فنهبت الريف وعادت، ثم مضى إلى يافا فحاصرها وهدم سورها، ثم عاد إلى دمشق ولم يبق من أهلها عشر العشر من الجوع والفاقة، بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفنأهم الوباء والغلاء والجلأ. وكان بها مائتان وأربعون خبازا فصار بها خبازان والأسواق خالية، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد،

والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار، وأكلت الكلاب والسنانير والفيران، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم.

وعاد الفاطميون يحاولون فتح دمشق وعليهم ناصر الدولة الجيوشي فحاصروها مدة ٤٧١ وترحلوا، ثم حاصروها مرة ثانية واستولوا على أعمالها وأعمال فلسطين، فاضطر صاحبها أتسز إلى الاستنصار بتاج الدولة، فلما عرف ناصر الدولة الخبر رحل عن دمشق وقصد الساحل. وكان ثغرا صور وطرابلس في أيدي قاضييهما قد تغلبا عليهما، ولا طاعة عندهما لأمر الجيوش الفاطمي، ويصانعان الأتراك بالهدايا والألطف. ووصل تاج الدولة إلى عذراء في عسكره لإنجاد دمشق فخرج أتسز إليه وخدمه ثم قبض عليه وقتله وملك تاج الدولة دمشق، واستقام له الأمر وأحسن السيرة في أهلها بالضد من فعل أتسز وملك أعمال فلسطين، ثم قصد حلب وملك حصن بزاعة ٤٧٠ وقتل جميع من فيه، وملك البيرة وأحرق ربض عزاز وغيرها من الحصون مع ما غلب عليه من القلاع المجاورة.

أول جمهورية عربية ومقتل آخر أمير عربي

وفي سنة ٤٧٢ انقضت دولة بني مرداس بحلب، وكان قصدها تتش بن آلب أرسلان فحاصرها أربعة أشهر ونصفا، ثم رحل عنها فنازلها مسلم بن قريش صاحب الموصل، وتعهد لملكشاه السلجوقي أن يحمل إليه كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فكتب له تقليدا، وعادت رياستها شورى في مشيختها وطاعتهم لمسلم بن قريش. ومعنى أن حلب أصبحت رياستها شورى في مشيختها أن الحلبيين لما نفضوا أيديهم من حام يحمي بلدهم ألفوا جمهورية من شيوخهم أدارت شئونهم زمنا، وجعلوا ملكهم

صاحب الموصل. وذكر المؤرخون أن الحلبيين أحسنوا في هذه الحكومة ولم يختلفوا ونفذت قواعد العدل واستقر الأمر في نصابه. وسبب ميل الحلبيين إلى مسلم بن قريش أن تتش بن ألب أرسلان حصر مدينتهم المرة بعد المرة واشتد عليها الحصار، فكان ابن قريش يواصلهم بالغلات وغيرها، ولما دخلها حصر القلعة واستنزل منها سابقا ووثابا ابني محمود بن مرداس، وأنفذ إلى السلطان يخبره بملك البلد، وأنفذ مع الرسول شهادة فيها خطوط المعدلين بحلب بضمانها، وسأل أن يقرر عليه الضمان، فأجابه السلطان إلى ما طلب. وفي سنة ٤٧٣ ملك جلال الملك بن عمار قاضي طرابلس وصاحبها حصن جبلة. وكان ابن عمار غلب على تلك الأصقاع سنين وعجز والي الفاطميين بدر الجمالي عن مقاومته.

وفي سنة ٤٧٥ جمع تاج الدولة تتش جمعا كثيرا وسار عن بغداد وقصد بلاد

الروم إنطاكية وما جاورها، فلما سمع شرف الدولة صاحب حلب الخبر خافه فجمع أيضا العرب من عقيل والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق فوعده بذلك. فلما سمع تاج الدولة الخبر عاد إلى دمشق وحصرها وقاتله أهلها. وفي بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق وقاتلوه، وحملوا على عسكره حملة صادقة فانكشفوا وتضعضعوا، وانهزمت العرب وثبت شرف الدولة وأشرف على الأسر وتراجع إليه أصحابه. فلما رأى ذلك ورأى أن مصر لم يصل إليه منها عسكر وأتاه من بلاده الخبر أن أهل حران عصوا عليه، رحل عن دمشق إلى بلاده وأظهر أنه يريد بلاد فلسطين. رحل أولا إلى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق وتاج الدولة

واضطربوا، ثم سار من مرج الصفر مشرقا في البرية، وجد في مسيره فهلك من المواشي الكثير مع عسكره وانقطع خلق.

وكان مسلم بن قريش الذي أحبه أهل حلب وأطاعوه من جملة عمال آلب أرسلان، وكان سليمان بن قنلمش السلجوقي صاحب قونية وأقصرًا وملاطية ومن عمال السلجوقيين وأنسابهم أشار إليه ملك السلجوقيين الأكبر السلطان ملكشاه أن يستولي على إنطاكية ٤٧٧ ففعل، ولما استقر فيها بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه المال الذي كان يحمله صاحب إنطاكية الرومي إليه فأبى وقال: أنا لا أدفع الجزية لأنني مسلم، فنهب مسلم بن قريش إنطاكية، ونهب سليمان بن قنلمش حلب، ثم جمع مسلم بن قريش الجموع من العرب والتركمان ومعه أمير التركمان جبج في أصحابه وسار إلى إنطاكية ليحصرها، فسار إليه سليمان بن قنلمش فالتقيا على نهر سبعين في موضع يقال له قُرْزاحل واقتتلا، فمال تركمان جبج إلى سليمان فانهمزمت العرب وتبعهم مسلم بن قريش منهزما، فقتل بعد أن صبر وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وسار سليمان إلى حلب فحصرها ٤٧٨ ولم يبلغ منها غرضا.

وفي هذه الواقعة التي قتل فيها سليمان بن قنلمش التركي مسلم بن قريش العربي انتقل ملك الشام من أيدي العرب إلى الترك ولم يحكم في الشام بعده إلا أمراء وملوك من التركمان والأتراك والشراكسة والأكراد. وكان الأتراك يأتون الشام منذ أوائل القرن الثالث عمالا للعباسيين، فلم تكن مقاتلهم بادية للعيان لأنهم كانوا يحكمون باسم الدولة التي يعملون لها، وكان أكثرهم على جانب من حسن الأدب والإدارة نشثوا نشأة عربية، وها قد جاء دور يعمل الأتراك فيه أحرارا لحساب أنفسهم، بعد أن ختم الحكم العربي بمقتل مسلم بن قريش العقيلي.

وعاد سليمان بن قلمش في السنة التالية وقصد حلب فبلغه أن تاج الدولة تتش قد تأهب لقصده فرحل عنها، والتقى عسكره وعسكر تاج الدولة في موضع يعرف بعين سيلم على ثلاثة أميال من حلب، فكسر جيش تاج الدولة عسكر سليمان وقتل هذا في الهزيمة وملك تاج الدولة عسكره وسواده ونزل على حلب فتسلمها. ثم وصل ملكشاه وانهمز أخوه تاج الدولة من حلب وملكها ملكشاه مع إنطاكية. أي إن سليمان بن قلمش أحد عمال السلطان ملكشاه السلجوقي، قتل بأمر مولاه مسلم بن قريش ليأخذ بلاده، فقام تتش أخو ملكشاه فقتل سليمان، ثم قام تتش يريد الاستئثار بالملك دون أخيه، وقد فاته أن ملكشاه تهتز الدنيا من جيوشه، وأخوه في الشام لا يخرج عن كونه واليا من ولاته، والغالب أن تاج الدولة عرف هذا من نفسه فلم يسعه إلا أن يخدم أخاه.

ولما نزل ملكشاه بحلب دخل ابن منقذ صاحب شيزر في طاعته، وسلم إليه اللاذقية وكفرطاب وأفامية، فأقره السلطان على شيزر وسلم حلب إلى قسم الدولة آق سنقر جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل والشام، ووالد عماد الدين زنكي، وجد نور الدين محمود بن زنكي. ولما استقر آق سنقر في حلب وأعمالها بسط العدل في أهلها، وحمى السابلة وتتبع المفسدين وأبادهم. وكان ملكشاه في سنة ٤٧٩ مَلَك حِران وقلعة جعبر على الفرات، ثم ملك منبج وحلب، أما دمشق فكانت بيد تاج الدولة تتش منذ سنة ٤٧١ أقطعه إياها أخوه السلطان ملكشاه مع ما يفتحه من بلاد الخليفة العلوي. وكانت جيوش الفاطميين تغزو بعض المدن الساحلية وتستردها من التركمان أحيانا، وسلطة الفاطميين تنقلص اللهم إلا من فلسطين، فإنهم بعد أتسز الخوارزمي أخذوا يستردوننها وخرج ٤٧٨ أمير الجيوش بدر الجمالي بجيوش مصر فحصر دمشق وبها تاج الدولة تتش وضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائدا إلى مصر.

تنازع السلجوقيين والفاطميين وانقسام السلجوقيين

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد أن قطعت خطبتهم من أهم مدنها مرات ثم عادت إليها، وبعثوا سنة ٤٨٢ جيشاً قصد الساحل وفتح ثغر صور، وكان تغلب عليها ابن أبي عقيل وامتنع عليهم ومات فوليها أولاده ودخلوا تحت راية تاج الدولة تتش، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها إليهم، ثم فتح الجيش الفاطمي صيدا وعكا وجبيل.

ونزل تاج الدولة ٤٨٣ على حمص ومعه آق سنقر ويزان وفيها خلف بن ملاعب الكناني، فضايقوها إلى أن ملكوها بالأمان. وخرج ابن ملاعب وسافر إلى مصر، ثم عاد وأعمل الحيلة حتى ملك حصن أفامية، واستخلصه منه قسيم الدولة آق سنقر في السنة التالية. وقيل: إن القتال كان على بعلبك وإن من حاربوا خلف بن ملاعب قالوا له: أنت خطبت للمستنصر العلوي، فلما أخافوه طلب الأمان.

وفي سنة ٤٨٤ فتح تاج الدولة عرقة وقلعة أفامية، ثم سار إلى طرابلس فحصرها وبها صاحبها ابن عمار ابن أخي القاضي أبي طالب بن عمار قاضي طرابلس

والمتغلب عليها، وكان معه آق سنقر ويزان ونصب عليها المجانيق. فاحتج عليهم ابن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس فلم يقبل منه تتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش: أنت تبع لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان. فغضب تتش ورجع إلى دمشق. وذكر ابن الأثير: أن ابن عمار لما رأى جيشاً لا يدفع إلا بحيلة أرسل إلى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم ليصلحوا حاله، فلم ير فيهم مطمعا، وكان مع آق سنقر وزير له اسمه زر بن كمر فراسله ابن عمار فرأى عنده لينا، فأتحفه وأعطاه فسعى مع

صاحبه آق سنقر في إصلاح حاله ليدفع عنه، وحمل له ثلاثين ألف دينار وتحفا بمثلها، وعرض عليه المناشير التي بيده من السلطان.

وفي سنة ٤٨٦ خرج من مصر عسكر كثير إلى صور لما عصى واليها منير الدولة، وكان أهل صور أنكروا عصيانه فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر بالله العلوي، فهجم العسكر المصري على البلد وأخذها، وفرض على أهلها ستين ألف دينار، وفي هذه السنة تحرك تتش من دمشق لطلب السلطنة بعد موت أخيه ملكشاه الذي توفي في السنة الماضية، واتفق معه آق سنقر صاحب حلب، وباغي سيان صاحب إنطاكية، وبزان صاحب الرها، وسار معه آق سنقر فافتتح نصيبين والموصل وديار بكر، وسار إلى أذربيجان، وكان بركيارق بن ملكشاه قد استولى على جانب كثير منها، فلما رأى آق سنقر ذلك تخلف عن معاونة تتش وقال: نحن إنما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان ملكشاه، أما إذا كان بركيارق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره. وخلي آق سنقر تتش ولحق ببركيارق فضعف تتش لذلك، وعاد من أذربيجان إلى الشام وأخذ في جمع العساكر وكثرت جموعه ٤٨٧ وجمع آق سنقر العسكر بحلب، وأمدّه الأمير بركيارق بالأمير كربغا صاحب الموصل، فاجتمع كربغا مع آق سنقر، والتقوا مع تتش عند نهر سبعين

على ستة فراسخ من حلب واقتتلوا، فخامر بعض عسكر آق سنقر مع تتش وانهزم الباقون، وثبت آق سنقر فأخذ أسيرا وأحضر إلى تتش فقال تتش لآق سنقر: لو ظفرت بي ما كنت صنعت، قال: كنت أقتلك، قال تتش: فأنأ أحكم عليك بما تحكم عليّ به. فقتل آق سنقر وسائر أصحابه صبوا، وسار تتش إلى حلب فملكها.

ورحل تاج الدولة عن حلب بعد أن ملكها وحصونها إلى الفرات، واستولى على حران وسروج والرُّها وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه في من بقي من الأجناد في الشام، فسار إلى حلب ومنها إلى العراق فالري، واستصحب معه جماعة من أمراء العرب وأتراك حلب القسيميّة، نسبة لتقسيم الدولة آق سنقر، فجرت وقعة بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وبين عمه تاج الدولة تتش على عانة من عمل الجزيرة، فانقلَّ عسكر هذا وتفرق ونهب سواده، وأسر أكثر جنده وقتل منه خلق كثير. واغتال بعض أصحاب آق سنقر تاج الدولة تتش فقضى عليه. ولما بلغ الخبر فخر الملوك رضوان في دمشق ما تم على أبيه تاج الدولة أغدَّ السير إلى حلب ففتحت له أبوابها، ووصل إليه أخوه شمس الملوك دُقاق من ديار بكر، وراسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب في قلعة حلب والبلد، وقرر له ملك دمشق سرا، فخرج في الحال من حلب، وجلس على سرير أبيه في دمشق، واستقام له الأمر واستمرت على السداد الأحوال. وفي سنة ٤٩٠ قدم على الأفضل بمصر رسل فخر الملوك رضوان بن تتش صاحب إنطاكية، يبذل له الطاعة في إقامة خطبة المستعلي بالشام، فأجيب بالشكر والثناء وخطب للمستعلي.

تطال تتش إلى ملك أخيه ملكشاه فصدّه عنه ابنه بركيارق وقتله. وقتل تتش آق سنقر لأنه لم يوافقّه على رغائبه من نزع الملك السلجوقي من ابن ملكشاه، وحنق تتش على آق سنقر منذ قال له يوم طرابلس وهو يريد على قتال صاحبها: نحن نطيعك إلا في عصيان السلطان. فقتل آق سنقر وجوزي تتش بأن قام من صنائع قتيله من يأخذ بثأره فقتله أيضا واستراح آل ملكشاه من تصدي تتش للملك وهو الذي لم يقنع بملك الشام، وكان فيه الملك الأعظم بعد مقتل آق سنقر. وتصرفت الأقدار بأن تتسلم زمام الأمر في هذا القطر ذرية تاج الدولة تتش، ريثما ينتقل منها الحكم إلى

مملوك آخر اسمه طغتكين، وهو يسلمه إلى حفيد آق سنقر نور الدين محمود بن زنكي.

الدولة الأتابكية وطغتكين وبنو أرتق

كان آق سنقر زبزان صاحباً حلب وإنطاكية من مماليك السلطان ملكشاه، وكان من أمرهما في الغناء والوفاء ما كان في الشام حتى مضيا لسبيلهما. ثم قام مملوك آخر طالت مدته أكثر منهما وكان له في الدولة بالشام اليد الطولى والكعب المعلى، ونعني به أبا منصور ظهير الدين أتابك طغتكين، من مماليك تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان ملك الشام، ومعنى أتابك مربي أولاد الملك أو قائد الجيوش. قال ابن القلانسي: حظي هذا الأمير وهو في حداثة سنه عند السلطان تاج الدولة فقدمه على أبناء جنسه من خواصه وبطانته، وسكن إلى شهامته وصرامته، وسداد طريقته، فجعله مقدم عسكره، واستنابه في تدبير أمر دمشق، وحفظها أيام غيبته، فأحسن السير فيها، وأنصف الرعية من أهلها، وبسط المعدلة في كافة من بها، فكثرت الدعاء له والثناء عليه، فعلت منزلته وامتثلت أوامره، ولم يلبث أن شاع ذكره بنجابته، وأشفقت النفوس من هيئته، فولاه ميفارقين وديار بكر وهي أول ولايته؛ وسلم إليه ولده شمس الملوك دقاق واعتمد عليه في تربيته وكفالته، فساس أمرها بالهيبة والتدبير، وأصلح فاسدها وقوم منأدها.

قال: وتنقلت به الأحوال إلى أن توجه مع تاج الدولة إلى الري وشهد الواقعة التي استشهد فيها تاج الدولة، وحصل في قبضة الاعتقال مع من أسر من المقدمين،

وأقام مدة إلى أن أفرج عنه ٤٨٨ فتلقاه شمس الدولة دقاق بدمشق وعسكره وأرباب دولته، وبولغ في إكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في

قيادة الجند، واعتمد عليه في تدبير المملكة، وسياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على الأمير ساوتكين والإيقاع به، وتمم عليه الأمر وقتل، وعقدت الوصلة بينه وبين ظهير الدين أتابك وبين الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق ودخل بها، واستقامت له الحال بدمشق وأحسن السيرة فيها، وأجمل في تدبير أهلها، وسكنت نفس شمس الملوك إليه. اه فانظر إلى غرائب التوفيق في الأرض كيف ينشأ مملوك، ربما كانت يد النحاس مرت على رأسه، يكفل ابن السلطان ويربيه ويتزوج بأمه ويتصرف في ملكه ويدبر أمره، ثم يصبح بتجاربه وعقله ملكا ترغب الملوك في التقرب منه، ويخاف العدى بأسه وسطوته، ويظهر في مظهر من طيب الأخلاق لا يضاهيه من تسلسل فيهم الحكم والملك، وتنقلوا في السلطان كابرا عن كابر، لكن هي التربية إذا حسنت أتى صاحبها بالعجائب، والنفوس إذا صفت جبل الخلق على حبها، والإرادات متى سلمت استمات الناس دونها، وبهذا كان الناس ولا يزالون يحكم كبارهم صغارهم، ويصبح المملوك ملكا مطاعا والمسود الخامل سيدا نابها، وكم من عصامي أفلح، ومن عظامي أخفق.

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خَلَقَ وجيب قميصه مرقوع ومن المماليك حكموا في الشام فأصبحوا ملوكا في هذا الدور أيضا بنو أرتق، نسبة لجدهم أرتق بن أكسك وقيل أكسب التركماني ومن مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان. تغلب أرتق على حلوان والجبل وكان منصورا لم يشهد حربا إلا وكان الظفر له، ثم أمره مولاه ملكشاه سنة ٤٧٧ أن يذهب مع فخر الدولة بن جهير لضبط الموصل، وبينما كان مسلم بن قريش محصورا في آمد، راسله أرتق وأخذ منه مالا وإفرا وفتح له طريقا سار منه، فأنهى ابن جهير ذلك إلى ملكشاه فخاف أرتق وذهب إلى دمشق والتحق بصاحبها تاج الدولة تتش، وعاونه على الاستيلاء على حلب،

وساعده في كثير من المواقف، فأقطعه فلسطين، أخذها من أصحاب أتسز أرتق الخوارزمي ٥٨٤. فلما توفي صارت القدس وعملها لولديه إيلغازي وسقمان ابني أرتق، حتى خرج عسكر خليفة مصر فاستولوا على القدس بالأمان في سنة ٤٨٩ بعد أن بقيت في حكم الأرتقية ثلاث عشرة سنة وأياما. وسار سقمان وأخوه إيلغازي من القدس فاجتاز سقمان بدمشق وكان صاحبها متغيبا عنها فقاتله أهلها ومن فيها من الأجناد.

وفي سنة ٤٩٠ برز الملك رضوان صاحب حلب وياغي سيان صاحب إنطاكية إلى ناحية شيزر وعزما على معاودة دمشق لفتحها، فوقع الخلف بين مقدمي العسكر فرجع ملك حلب، وورد عليه كتاب المستعلي بالله الفاطمي يريد على الدخول في طاعته، وإقامة الدعوة لدولته، وكذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل ذلك، فأجابهما إلى ما التمساه وأمر أن يدعى للمستعلي على المنبر وللأفضل بعده، ثم يدعى له بعدهما، ودامت الخطبة على ذلك أربع جمع. وكان الملك رضوان قد بنى الأمر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري والنزول على دمشق لأخذها من أخيه الملك دقاق. فأنكر سقمان بن أرتق وياغي سيان على الملك الدخول في الأمر، واستبدعاه من فعله، وأشارا عليه بإبطاله واطراح العمل به، فقبل ما أشير عليه وأعاد الخطاب إلى ما كانت عليه أي للعباسيين. وجرى الاتفاق على أن يخطب في دمشق لرضوان قبل أخيه دقاق، وذلك بعد أن يخطب للخليفة ثم للسلطان، وفي هذه السنة خرج العسكر من مصر ونزل على صور بعصيان واليه المعروف بالكتيلة، ولم يزل منازلها إلى أن فتحها بالسيف قهرا وقتل فيها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل، وأخذ الوالي فقتل.